

أو ألقى السمع وهو شهيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٧)
[ق: 37]

قَاعِدَةٌ جَلِيلَةٌ إِذَا أَرَدْتَ الْإِنْتِفَاعَ بِالْقُرْآنِ فَاجْمَعْ قَلْبَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ وَسَمَاعِهِ وَأَلْقِ سَمْعَكَ وَاحْضِرْ حُضُورَ مَنْ يَخَاطِبُهُ بِهِ مِنْ تَكَلُّمٍ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ فَانْهَ خَاطِبَ مِنْهُ لَكَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وَذَلِكَ أَنْ تَمَامَ التَّأثيرِ لَمَّا كَانَ مَوْفُوفاً عَلَى مُؤَثِّرٍ مُفْتَضٍ وَمَحَلِّ قَابِلٍ وَشَرَطَ لِحُصُولِ الأَثَرِ وَانْتِفَاءِ المَانِعِ الَّذِي يَمْنَعُ مِنْهُ تَضَمَّنَتِ الأَيَّةُ بَيَانَ ذَلِكَ كَلَّهُ بِأَوْجِزِ لَفْظٍ وَأَبْيَنِهِ وَأَدْلَاهُ عَلَى المُرَادِ فَقَوْلُهُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ أَشَارَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هَهُنَا وَهَذَا هُوَ المَوْثِرُ وَقَوْلُهُ ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ فَهَذَا هُوَ المَحَلُّ القَابِلُ وَالمُرَادُ بِهِ القَلْبَ الحَيِّ الَّذِي يَعْقِلُ عَنِ اللّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أَي حَيِّ القَلْبِ وَقَوْلُهُ ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أَي وَجَّهَ سَمْعَهُ وَأَصغَى حَاسَّةَ سَمْعِهِ إِلَى مَا يُقَالُ لَهُ وَهَذَا شَرَطُ التَّأثيرِ بِالكَلَامِ وَقَوْلُهُ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أَي شَهِدَ القَلْبَ حَاضِرٌ غَائِبٌ.

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ اسْتَمَعَ كِتَابَ اللّهِ وَهُوَ شَهِدَ القَلْبَ وَالفَهْمَ لَيْسَ بِغَافِلٍ وَلَا سَاهٍ وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى المَانِعِ مِنْ حُصُولِ التَّأثيرِ وَهُوَ سَهْوُ القَلْبِ وَغَيْبَتُهُ عَنِ تَعَقُّلِ مَا يُقَالُ لَهُ وَالنَّظَرُ فِيهِ وَتَأْمَلُهُ فَإِذَا حَصَلَ المَوْثِرُ وَهُوَ القُرْآنُ وَالمَحَلُّ القَابِلُ وَهُوَ القَلْبَ الحَيِّ وَوَجَدَ الشَّرْطَ وَهُوَ الإِصغَاءُ، وَانْتَفَى المَانِعُ وَهُوَ اشْتِغَالَ القَلْبِ وَذَهُولُهُ عَنِ مَعْنَى الخُطَابِ وَانصرافه عَنْهُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ حَصَلَ الأَثَرُ وَهُوَ الْإِنْتِفَاعُ وَالتَّذَكُّرُ.

فَإِنْ قِيلَ إِذَا كَانَ التَّأْثِيرُ إِنَّمَا يَتِمُّ بِمَجْمُوعِ هَذِهِ فَمَا وَجِهَ دُخُولَ أَدَاةِ أَوْ فِي قَوْلِهِ ﴿أَوْ أَلْفَى السَّمْعُ﴾ والموضع موضع وَاو الجمع لا موضع أو التي هي لأحد الشئيين قيل هَذَا سُؤَالَ جَيِّدٍ وَالْجَوَابُ عَنْهُ أَنْ يُقَالَ خَرَجَ الْكَلَامُ بِأَوْ بِاعْتِبَارِ حَالِ الْمُخَاطَبِ الْمَدْعُوِّ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ حَيِّ الْقَلْبِ وَاعِيهِ تَامَ الْفِطْرَةَ فَإِذَا فَكَّرَ بِقَلْبِهِ وَجَالَ بِفِكْرِهِ دَلَّهَ قَلْبُهُ وَعَقْلُهُ عَلَى صِحَّةِ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ الْحَقُّ وَشَهِدَ قَلْبُهُ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنَ فَكَانَ وُزُودَ

الْقُرْآنِ عَلَى قَلْبِهِ نَوْرًا عَلَى نَوْرِ الْفِطْرَةِ وَهَذَا وَصَفَ الَّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ وَقَالَ فِي حَقِّهِمُ اللَّهُ نَوْرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ فَهَذَا نَوْرُ الْفِطْرَةِ عَلَى نَوْرِ الْوَحْيِ وَهَذَا حَالُ صَاحِبِ الْقَلْبِ الْحَيِّ الْوَاعِي قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ وَقَدْ ذَكَرْنَا مَا تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْعَبَرِ فِي كِتَابِ اجْتِمَاعِ الْجِيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى غَزْوِ الْمَعْطَلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ فَصَاحِبُ الْقَلْبِ يَجْمَعُ بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ مَعَانِي الْقُرْآنِ فَيَجِدُهَا كَأَنَّهَا قَدْ كَتَبَتْ فِيهِ فَهُوَ يَقْرَأُهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبِ

وَمَنْ النَّاسِ مَنْ لَا يَكُونُ تَامًا الْإِسْتِعْدَادِ وَاعِي الْقَلْبِ كَامِلِ الْحَيَاةِ فَيَحْتَاجُ إِلَى شَاهِدٍ يَمَيِّزُ لَهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَلَمْ تَبْلُغْ حَيَاةَ قَلْبِهِ وَنُورَهُ وَزَكَاءَ فِطْرَتِهِ مَبْلُغَ صَاحِبِ الْقَلْبِ الْحَيِّ الْوَاعِي فَطَرِيقَ حُصُولِ هِدَايَتِهِ أَنْ يَفْرَغَ سَمْعَهُ لِلْكَلامِ وَقَلْبَهُ لِتَأْمَلِهِ وَالتَّفَكِيرِ فِيهِ وَتَعَقُّلِ مَعَانِيهِ فَيَعْلَمُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ الْحَقُّ فَالْأَوَّلُ حَالٌ مِنْ رَأْيِ بَعْضِهِ مَا دَعِيَ إِلَيْهِ وَأَخْبَرَ بِهِ وَالثَّانِي حَالٌ مِنْ عِلْمِ صَدَقِ الْمُخْبِرِ وَتَيَقُّنِهِ وَقَالَ يَكْفِينِي خَبْرُهُ فَهُوَ فِي مَقَامِ الْإِيمَانِ وَالْأَوَّلُ فِي مَقَامِ الْإِحْسَانِ هَذَا قَدْ وَصَلَ إِلَى عِلْمِ الْيَقِينِ وَتَرَقَّى قَلْبُهُ مِنْهُ إِلَى فَنزَلَةَ عَيْنِ الْيَقِينِ وَذَلِكَ مَعَهُ التَّصَدِيقُ الْجَازِمُ الَّذِي خَرَجَ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَدَخَلَ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ فَعَيْنُ الْيَقِينِ نَوْعَانِ نَوْعٌ فِي الدُّنْيَا وَنَوْعٌ فِي الْآخِرَةِ فَالْحَاصِلُ فِي الدُّنْيَا نَسْبَتُهُ إِلَى الْقَلْبِ كَنَسْبَةِ الشَّاهِدِ

إِلَى الْعَيْنِ وَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الْغَيْبِ يَعْلَمُ فِي الْآخِرَةِ بِالْأَبْصَارِ وَفِي الدُّنْيَا بِالْبَصَائِرِ فَهُوَ عَيْنُ يَقِينٍ فِي الْمَرْتَبَتَيْنِ ،

انتهى

التعليق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم أما بعد فقد وصف الله المؤمنين بصفة متعلقة بالقرآن الكريم لقوله تعالى

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا

وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ [الأنفال: 2]

لاحظ أن فعل تليت مبن للمجهول فأى تال يتلو القرآن يؤثر في المؤمن فأقترح برنامجاً عملياً كما يلي :

أولاً: إن تدبر الآيات هو المانع من النفاق لقوله تعالى

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ [محمد: 24]

ثانياً: أن تقرأ يومياً من التفاسير المبسطة "صفوة التفاسير" أو "مختصر تفسير ابن كثير" للشيخ محمد علي الصابوني صفحة واحدة على الأقل حتى تختم تفسير القرآن كاملاً إضافة لذلك.

ثالثاً: أن تستمع للقرآن بصوت منخفض عندما تأتي لتنام فهذا السماع سيؤدي حتما لزيادة الإيمان.

رابعاً: أن تقرأ بالحد الأدنى جزءا من القرآن يومياً.

خامساً: أن لا تستمع نهائياً للأغاني والمسلسلات الماجنة لقول الله عز وجل

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا

أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ [لقمان: 6]

وهذه الآية نزلت في رجل إبتاع جارية كانت تغني له ليل نهار ، وهذا السماع للأغاني منافي للحكمة، فسورة لقمان سورة الحكمة، وإعلم أن خير الأعمال أدومها وإن قل.

سادساً: وإن من وصايا الشيخ عبدالله عزام رحمه الله أن يحتفظ بنسخة من القرآن الكريم في جيبك تقرأ منها في كل أوقات الترحال وغيرها .

هذا والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم